العلامة المجمعي جبر ضومط

(١٨٥٩ - ١٩٣٠)

عيسى فتوح

حين وصل المرسلون الأميركيون إلى لبنان في مطلع العقد الرابع من القرن التاسع عشر ، انصرفوا إلى افتتاح المدارس للتعليم والتبشير بمذهبهم البروتستانتي ، وكان أول هذه المدارس وأهمها مدرسة « عبية » التي تأسست عام ١٨٤٧ م ، فما إن ينهي الطالب دراسته الاستعدادية فيها ، حتى يلتحق بالكلية السورية الانجيلية في بيروت ـ الجامعة الأميركية الآن ـ ويتخرج منها حاملاً شهادة بكالوريوس علوم أو غيرها .

لقد استقطبت المدارس الأميركية في لبنان خيرة المعلمين وجذبتهم إليها ، وكان في طليعة الذين عملوا فيها الشيخ ناصيف اليازجي ، وبطرس البستاني ، ويعقوب صروف ، وفارس نمر ، وابراهيم الحوراني ، وأسعد داغر ، وميخائيل مشاقة وغيرهم ... ولم يكتفِ هؤلاء الرواد بالتعليم في المدارس التبشيرية الأميركية ، بل ساعدوا المرسلين على ترجمة التوراة الى اللغة العربية ، وطبعوها في المطابع التي أسسوها لهذه الغاية في جزيرة مالطة ، ثم نقلوها إلى بيروت عام ١٨٣٤ م ، فأخذت هذه المطابع تُعنى بنشر مطبوعاتهم الأخرى التي يحتاجون إليها في التعليم والتبشير معاً .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لم تقتصر المدارس الأميركية على عبية وبيروت فحسب ، بل تعدتها فيما بعد إلى صيدا وطرابلس وسوق الغرب ، ثم تسربت إلى سورية فكانت لهم مدارس مماثلة في دمشق وحمص وحلب واللاذقية ، وتغلغلت في المناطق والقرى التي أغلب سكانها من طائفة الروم الأرثوذكس ، فكانت لهم مدارس في : صافيتا ، ومشتى الحلو ، والكفرون ، وكان التنافس على تأسيس هذه المدارس شديداً بينهم وبين اليسوعيين في جميع المدن والمناطق والقرى التي ذكرتها ، ثم دخلت ميدان هذا التنافس إرساليات أخرى انكليزية والمانية وايطالية وروسية ، ولايزال في بعض مناطق لبنان وسورية وفلسطين آثار للمدارس المسكوبية ، قائمة ومعروفة حتى الآن ، أذكر منها على سبيل المثال مدرسة في مشتى الحلو ، وأخرى في كفرون بدره بمنطقة صافيتا .

في صيف عام ١٨٦٩ م وصل إلى صافيتا المعلم يعقوب صروف ليعلم في مدرستها الأميركية[1] وسكن في غرفة على تل يقابل البرج يسمى « ضهر بيت سمعان » ، وإلى جانب هذه الغرفة مدرسة صغيرة للأولاد أنشأها المرسلون الأميركيون ، وكان يعلم فيها قبله رجل من « إبل السقي »[1] .

---

(١) أسس المرسلون الأميركيون هذه المدرسة عام ١٨٦٥ م .

[(1) ابل السقي ، هكذا يسميها العامة ، والصواب : آبل السقي .

وآبل ، على وزن صاحب ، تستعمل ، مفردة ومضافة ، اسماً لعدة مواضع في بلاد الشام . ويقال إن معناها الروض أو المرج .

وجاء في معجم البلدان ذكر : آبل الزيت ، وآبل القمح ، وآبل السوق ، وآبل .

وفي القاموس والتاج أسماء : آبل وآبل السوق وآبل الزيت .

وآبل السقي : قرية من قضاء مرج عيون في جنوب لبنان ، تقع على يمين السائر من =

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في هذه المدرسة الصغيرة جرى أول لقاء بين المعلم يعقوب صروف وتلميذه جبر ضومط الذي كان وقتئذ في العاشرة من عمره ؛ فأحب التلميذ معلمه حباً جماً وتعلق به ، لأنه كان عنده « المعلم الصالح الذي تعطر النفس محبته ، وتملؤها سلاماً واطمئناناً » .

كانت المدرسة الأميركية على مقربة من بيت جده الشيخ اسبر ضومط ، هذا البيت الذي بني حائط داره من الحجر الأزرق المختلف الأحجام والأشكال ، وفوقه من بعض جهاته مايحميه من الشوك ليتعذر الصعود إليه ، أما باب البيت فكان من خشب السنديان أو الجوز السميك ، وكانت ألواحه مختلفة السماكة حتى في اللوح الواحد ، لم يشذّبها منشار ، ولاأزالت خشونتها فارة[2] نجار ماهر ، وعليه مسكّرة[3] ضخمة من الخشب تدخل في « طاقة » غير نافذة في صدغ الحائط ، مساميره التي شدت بها الألواح الى العارضتين العليا والسفلى ، من خشب يسمونها « خوابير » ، وعن يمين الباب الى جهة الجنوب مصطبة تعلو شيئاً قليلاً عن الدار ، مسقوفة بأغصان شجر الغار ، وجداراها الجنوبي والغربي قائمان على قوائم مما يعرف في صافيتا باسم « قَطْش » ، عليها عوارض من

= جديدة مرج عيون الى حاصبيا (دائرة المعارف لبطرس البستاني ١ : ٢٢ ـ ٢٣ ، دائرة المعارف لفؤاد افرام البستاني ١ : ٤١ ـ ٤٢ ، معجم البلدان لياقوت (آبل) ، القاموس والتاج (ابل) / المجلة] .

[(2) الفارة ، في مصطلح حرفة النجارة : هي الأداة التي يقشر بها الخشب ، ويصقل . ويطلق عليها في العربية الفصحى : المسحج .

جاء في القاموس والتاج (س ح ج) : « المسحج كمنبر : المبراة يبرى بها الخشب » / المجلة] .

[(3) السكّرة : كلمة تدل على نوع من الأقفال الخشبية التي كان يصطنعها الفلاحون وأصحاب الباتين في إغلاق أبواب المنازل والمداخل / المجلة] .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مثلها ، وغُطي مابين القوائم والعوارض بغرف[4] من أغصان البلوط والسنديان والريحان وغيرها .

في هذا البيت الريفي البسيط المتواضع ولد جبر ميخائيل ضومط في السابع والعشرين من أيلول عام ١٨٥٩ ونشأ ، وتعلم في المدرسة الأميركية القريبة منه الحروف الهجائية بالافرنجي ، ولفظها بما يقابلها من الحروف الهجائية العربية ، فما ترك الصبي عماً ولاخالاً ولاخالة ولاابن عم أو خال ، بل ماترك رفيقاً من أترابه رآه إلا زفّ إليه بشرى تعلمه هذه الحروف ، لكن فرحته بلقاء معلمه يعقوب صروف لم تطل أكثر من شهر واحد ، فما إن مرت عطلة الكلية السورية الانجيلية الصيفية ، حتى عاد يعقوب صروف إليها ليتم سنته الدراسية الأخيرة فيها ، وظلّ جبر التلميذ في صافيتا يحلم بالسفر إلى « عبية » ليتابع دراسته هناك ... وكم مرة نهض في الصباح ليقص حلمه على أمه ، ثم على كل واحد من أهل الدار ، وعلى غيرهم من الجيران ، فإذا أحس أنهم ضجروا من ثرثرته سكت خوفاً من مكنسة أمه التي كانت تضربه بها لتفشأ من غيظها أو غضبها على ثرثرته ، لكنها لاتؤذيه ، وقد لاتوجعه أحياناً « وإن أوهمته أنها توهمت ذلك » ، ولم تكن تحفل بتطير المتطيرين بالضرب بالمكنسة .

يقول جبر ضومط وهو يستعيد ذكريات طفولته : « سمعت مرة جارتنا امرأة موسى برهوم تقول لأمي : أما هو حرام عليك تضربيه بالمكنسة ؟ فأجابتها : ياويلي أخاف يامرة عمي إذا ضربته بغير المكنسة آذيه أو على الأقل وجعو ، ومالي قلب اسمعو يبكي ، وهويّ الله يرضى

[(4) الغَرَفُ : وهو شبيه بالأسَل ، وتتخذ منه المكانس ، ويظلّل به المزاد فيبرد الماء (اللسان والتاج ـ غرف ، ثم) / المجلة] .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عليه إذا حس على شي مابيرضيني مابيعملو »[5] .

في سنة ١٨٧٠ م سمحت أم جبر لابنها الوحيد أن يفارقها الى مدرسة عبية الأميركية ، رغم إنكار نساء برج صافيتا عليها أن تسمح له بالتغرب عنها إلى قرية تبعد ثلاثة أيام عن قريتها ، وكان أكثر مادعاها إلى السماح لابنها بالذهاب الى مدرسة عبية ـ التي كانت في ذلك الزمان أبعد من أبعد البلدان النائية التي يتغرب إليها أبناء صافيتا ـ هو إعجابها بالمعلم يعقوب صروف وتهذيبه .

هناك بدأ يسمع عن معلمه ويعرف عنه مالم يكن يعرفه من قبل ، فزاده ذلك محبة له واحتراماً ، ووصل ـ بعد مضي سنتين ـ إلى ماكان يحلم به ويصبو إليه ، ألا وهو الانتقال من مدرسة عبية الى الكلية السورية الانجيلية في بيروت التي أخذ منها معلمه الدكتور صروف علمه ، وكان قد انطبع في ذهنه أن لامعلم فوقه .

في تشرين الأول عام ١٨٧٢ م تحققت أمنية الطالب جبر ضومط بالانتقال إلى الكلية السورية الانجيلية في بيروت بعناية الدكتور صموئيل جُسِب وزوجته التي أبدت ، اهتماماً كبيراً به ، وبخاصة حين لمست ولعه بدراسة اللغة العربية وأخواتها الساميات ، فأتيح له بهذا الانتقال أن يتتلمذ من جديد على المعلم يعقوب صروف ، ويغرف من بحر علمه الغزير وأدبه الواسع .

أمضى جبر ضومط أربع سنوات في الكلية السورية الانجيلية ، نال في نهايتها شهادة بكالوريوس علوم ، ثم عاد إلى صافيتا عام ١٨٧٦ م ، لكن صلته بالدكتور صروف لم تنقطع ، بل ظلّ يراسل مجلته

[(5) هذا نموذج من لهجة أهل المنطقة في تلك الأيام / المجلة] .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

« المقتطف » التي أسسها مع الدكتور فارس نمر عام ١٨٧٦ م في بيروت ، وبعد مضي تسع سنوات على تأسيسها أحب أن يتفرغ إليها ، فترك التدريس في الكلية السورية الانجيلية ، وانتقل بها إلى القاهرة عام ١٨٨٤ م ، وهكذا انتقل جبر ضومط من التلمذة بواسطة المدرسة والجامعة الى التلمذة بواسطة المقتطف كما يقول .

وبعد أن علم في المدرسة الانجيلية في حمص ستة أشهر ، سافر في شباط عام ١٨٧٧ م إلى طرابلس ليعلم في مدرستها الانجيلية ، فأمضى ثماني سنوات كانت حافلة بالعطاء ، ملأى بالجدّ والعمل الدؤوب ، ثم أحب أن يغيّر طبيعة عمله فسافر عام ١٨٨٤ م إلى الاسكندرية ، وعمل في تحرير جريدة « المحروسة » التي كان يصدرها سليم النقاش ، ثم عين ترجماناً في حملة غوردون إلى السودان ، وكان جرجي زيدان رفيقه في هذه المهمة ، وبعد الانتهاء منها رجعا إلى بيروت لدراسة العبرية والسريانية ، ثم سافرا إلى انكلترا وترددا على مكتبة المتحف البريطاني للاطلاع على نفائسها ، ومعرفة ماحوته من كنوز الكتب والمخطوطات ، ولما عادا قصد زيدان مصر ، أما ضومط فاختارته عمدة مدرسة « كفتين » الشهيرة بالقرب من طرابلس أستاذاً فيها فعلّم ثلاث سنوات وفي عام ١٨٨٩ م ، انتدبته الجامعة الأميركية لتدريس الفلسفة الطبيعية واللغة العربية خلفاً للأستاذ يوسف افتيموس ، فقام بإدارة الدروس العربية وأعباء التعليم والتهذيب مايزيد على أربعة وثلاثين عاماً ، وتخرج على يديه نحو خمسمائة طالب من حملة شهادة بكالوريوس علوم ومعلم علوم وطبيب ، حتى أحيل على التقاعد عام ١٩٢٣ م وقد بلغ الخامسة والستين ، لكنه ظلّ يعمل في ميدان الكتابة والتأليف حتى وافته المنية في السابع عشر من كانون الثاني عام ١٩٣٠ م .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كان جبر ضومط رَبْع القامة ، ممتلئ الجسم ، عريض المنكبين ، على وجهه بشاشة تشفّ عن سريرة طيبة صافية ، وعلى شفتيه ابتسامة لاتفارقه ، تدل على حسن الطوية والانشراح الداخلي ، وكان ذا عينين براقتين ، تدلان على ذكاء حاد ، وفكر وقاد .

مؤلفاته

لقد استطاع جبر ضومط ، مع علمه بالعربية والانكليزية : أن يلم بالعبرانية والسريانية ، ويؤلف كتباً للتعليم على أسلوب جديد منها :

١ ـ الخواطر في اللغة ـ بيروت ، المطبعة الأدبية ١٩٠٤ ص ٣٤٨ بحث فيه تصاريف الأفعال والأسماء والضمائر ونشوءها ومقابلتها مع مثيلاتها في السريانية والعبرانية .

٢ ـ الخواطر الحسان في المعاني والبيان ـ مصر ١٨٩٦ ص ٢٧٢ وبيروت ، مطبعة الوفاء ١٩٣٠ ص ٢٢٤ .

٣ ـ الخواطر العراب في النحو والإعراب ـ بيروت ، المطبعة الأدبية ١٩٠٤ ص ٣٤٨ ، وطبعة ثالثة ١٩٢٨ ص ٣٤٨ . كتاب مطول شامل في النحو ركز فيه على ضرورة فهم القواعد وتنشئة التلميذ على الاعتقاد أن علوم اللغة خاضعة لأحكام العقل .

٤ ـ فلسفة البلاغة ـ بعبدا ، المطبعة العثمانية ١٨٩٨ ص ١١٢ .

٥ ـ رسالة في النسبة ـ بيروت ، مطبعة الوفاء ١٩٣١ ص ١٨ .

٦ ـ سفر التكوين : بحث نظري فلسفي ـ بيروت ، مطابع قوزما ص ٦٤ .

٧ ـ فلسفة اللغة العربية وتطورها ، وهي مقالات أنشأها في تاريخ اللغة العربية ـ مصر ، مطبعة المقتطف والمقطم ١٩٢٩ ص ٢١٥ .

٨ ـ اللغة العربية ومقامها بين اللغات السامية : بحث تاريخي فلسفي ـ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بيروت ، المطبعة الأدبية ١٩١٢ ص ٢٣ ـ بحث فيه عن وطن العربية الأصلي ، ونسبة اللغات السامية بعضها الى بعض .

٩ ـ فك التقليد في علم الصرف (بالاشتراك مع بولس الخولي) بيروت ١٩٠٨ ص ٢٠٨ .

آراؤه ونظرياته في اللغة

من أهم اجتهادات العلامة جبر ضومط التي وصل إليها نتيجة الدرس والاستقراء أن لغات البشر اليوم التي تعد بالألوف كانت في زمن متوغل في القدم لغة واحدة قليلة الكلمات بل الأصوات ، ثم تفرقت طوائف ، وكل طائفة تفرقت وتشعبت شعباً كثيرة ، ودخل المزج والنحت في كلماتها حتى بلغت مابلغته ، وهذا شأن العربية ... وإن الكلمات المتشابهة في مخارج بعض حروفها تتشابه في معانيها أيضاً كجذع وجدع ، وجدم وجذم ، وختم وكتم ، وقطب وقطف ، وكان هذا سبباً لتولد كلمات مختلفة لفظاً ومشتركة معنى .

ويرى أن وزن المطاوعة (انفعل) مركب من لفظة (أنا) ضمير المتكلم ، والفعل المجرد ، فقولنا : انغمست مساوٍ لقولنا أنا غمست ، أو غمست نفسي .

كذلك يرى أن اللغة العربية قد نشأت كما تنشأ كل الأجسام الحية ، واعتراها التغيير والتبديل ، فلا يعقل أن يمر ألف وأربعمائة عام وتبقى فيها على حالها تماماً ، والواقع أنه عرض لها أمران جوهريان :

الأول : أنها تغيرت تغيراً كبيراً في ألسنة المتكلمين بها في مصر والشام والعراق وتونس والجزائر وبلاد العرب نفسها ، حتى لايكاد ابن الشام يفهم حديث ابن تونس ، ولايكاد ابن المغرب الأقصى يفهم كلام ابن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

العراق ، إلا أن هذا التباين يكاد يكون محصوراً في الكلام الدارج ، وقلما يتناول الكتابة ، ويحتمل أن يزول أكثره بعدما سهلت سبل الاتصال ، وانتشرت الجرائد والمجلات .

والأمر الثاني ـ وهو المهم ـ انه دخل العربية كثير من لغات الأقوام الذين صارت العربية لغتهم ، أو الذين نُقلت العلوم من لغاتهم إلى العربية ، وقد كان الدخيل كثيراً في العربية قبل الاسلام لأنه لايعقل أن يتصل العرب بسكان مصر والشام والعراق وفارس كما كانوا متصلين ولايدخل العربية كثير من اللغات المصرية واليونانية والسريانية والعبرانية والفارسية ، ولو خفي على جامعي العربية أصل كثير من كلماتها ، فحسبوها كلّها من صميم العربية .

ثم زاد الدخيل بعد الفتوحات الاسلامية ، ونقل العلوم من اليونانية والسريانية والفارسية والهندية ، ولو لم يعلم جامعو اللغة أنه دخيل .

لقد كانت اللغة العربية ولاتزال لغة حية نامية ، ولذلك لايخشى العلامة جبر ضومط أن تدخلها العرف من الكلمات السريانية والعبرانية والمصرية واليونانية التي لايمكن إلا أن تزيدها غنى ، ولها أسوة في ذلك باللغات الفرنسية والانكليزية والالمانية ، وكل اللغات العالمية المشهورة ، فالكلمات تتنازع البقاء مثل الأحياء ، ولايبقى منها إلا ما ينفع الناس .

ولو قارنا بين ماأعطت اللغة العربية غيرها من لغات الأمم والشعوب ، وماأخذت منها لوجدنا أن عطاءها فاق أخذها بكثير ، وقد كان هذا العطاء مصدر فخر واعتزاز عند جبر ضومط ، لذلك يقول : يكفي أنها أعطت حروفها الهجائية لملايين الملايين من الشعوب في بلاد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فارس والهند وجزائر البحر ، ولا يزال كثير من علماء هذه البلاد يكتبون مؤلفاتهم بالعربية ، كما أعطت لغات الأتراك والتتر والفرس والأوردو المئات والألوف من ألفاظ المعاني ، والمئات والألوف من الجمل التامة ، بل أعطت أكثر هذه اللغات - ولاسيما التركية - كل مصطلحات علوم اللغة والبيان والبديع والعروض ، واكثر مصطلحات العلوم والفلسفة ... ويقول : يكفينا فخراً أننا أعطينا لغات أوروبا الأرقام العربية ، وكثيراً من أسماء المعاني والمصطلحات العلمية .

ويبلغ حماسته الشديدة للغة العربية إلى حد القول : « لو كان لي من الأمر شيء وعندي مال لأنفقت على تعليم العربية ، أو قل على تعزيزها في الصين والهند وتركستان مليون جنيه في السنة على الأقل ، وأكون مع الأيام الرابح أدبياً ومادياً ، ولو كنت تقدمت على الزمن الذي أنا فيه خمسين سنة ، وكان لي من الأمر شيء لكنت عززت العربية في شمالي أفريقيا إلى أقصى غاية »[٢].

ولاننسى أن جبر ضومط كان يدعو إلى تعزيز العربية ورفع مكانتها وإعلاء شأنها في العهد العثماني ، وليس في عهد الاستقلال ، يوم كان الأتراك يحاربون اللغة العربية حرباً لاهوادة فيها ، ويسعون الى تحجيمها ومنع التعليم بها ، لئلا يستيقظ الشعور بالقومية العربية ، ويؤدي ذلك الى الانتفاض والثورة عليهم ، ويرد على الأتراك الذين حاولوا إحلال اللغة التركية محل اللغة العربية في الممالك العربية التابعة لسلطانها قائلاً : « ليس من السهل أن تستبدل اللغة العربية بلغة[6] أخرى من لغات أهل

(٢) فلسفة اللغة العربية وتطورها ، ص ١٣٠ .

[(6) الفصيح أن يقال : أن تستبدل باللغة العربية لغة أخرى من لغات أهل الأرض أجمع .... أن تستبدل باللغة العربية اللغة التركية . يدخلون الباء على المتروك / المجلة] .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الأرض أجمع ولايناسب عزّ الدولة ومجدها وحريتها أن تستبدل اللغة العربية باللغة التركية ، فتفقد كل التأثير المعنوي الذي لها في تاريخ العرب وفي الآداب العربية ، علماً بأن مجموع المتكلمين بالعربية يبلغ نحواً من ستين بالمئة من جميع العثمانيين على اختلاف أجناسهم وألسنتهم معاً ... ولو لم يكن من متكلم بالعربية إلا من ذكرنا لكان من الرأي والحكمة أن يُنظر إلى هذه اللغة نظرة خاصة ، بل يجب أن تقدم على اللغة التركية[٣] .

ويرى جبر ضومط أن اللغة العربية من أغنى لغات الأرض بكثرة ألفاظها ، واتساع اشتقاقها ، ونفوذ القياس واطراده فيها ، وهي بذلك لاتقل عن اليونانية واللاتينية اللتين هما مصدر غنى اللغات الأوربية .

ويؤكد أنه إن كان هناك للغة حق بأن تعيش وتبقى ، فالعربية أحق لغة أن يكون لها هذا الحق ، ودليله على ذلك أنها عاشت إلى الآن ألفاً وخمسمائة سنة ، وأبناؤها اليوم يكادون يفهمون أشعار شعراء الجاهلية والمخضرمين ، كما يفهمون أشعار أبي تمام والبحتري والمتنبي وأبي العلاء والشريف الرضي وكأنها نظمت أمس .....

ويستغرب كيف يشكو البعض من أنها تغص بأفكارهم ، وتضيق ألفاظها وتراكيبها عن دائرة خيالاتهم وتصوراتهم الشعرية ، ولذلك يقول لهؤلاء الشاكين : لو أنصفتهم لغتكم لسمعتم هاتفاً يهتف بكم أن وسعوا دائرة خيالكم وتصوراتكم عن ابتكار لا عن تقليد ، وعن روية لا عن ترجمة ، وأنا الضمين لكم أن العربية تتسع أمامكم كما اتسعت لمن تقدمكم ، وأنكم

---

(٣) فلسفة اللغة ، ص ١٢٧ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تجدون في ألفاظها المتولدة ، والتي يمكن أن تتولد بالقياس ، ماتطلبون وفوق ماتطلبون .

ثم يقارن بين اللغة العربية واللغة الانكليزية من حيث استعدادهما لبيان المعاني والخيالات الشعرية ومايليها نظماً ونثراً ، فيشك في أن اللغة الانكليزية - وهي أغنى لغات أوروبا - تستطيع أن تمثل أفكار المتنبي وحماسته المعروفة في مديح سيف الدولة بألفاظ أفصح من ألفاظه وعبارات أبلغ من عباراته ، أو تحدث في النفس ماتحدثه تلك القصائد من القشعريرة ، وهو على يقين بأن المعاني والحكم المودعة في كافوريات المتنبي لاتستطيع اللغة الانكليزية تصويرها بعبارات أبلغ من عبارتها العربية .

ويقول : قد يكون في خاصة الانكليز وأهل الأدب منهم أفراد أرقى من خاصة المتكلمين بالعربية في استعدادهم وعلمهم معاً ، ولكني لاأسلم بأن استعداد اللغة الانكليزية لاتساع وتصوير الأفكار والتخيلات الشعرية حقيقة أو مجازاً ، هو في أصله وطبيعته أعلى وأرقى من استعداد اللغة العربية له . ينقصنا استعداد الأشخاص لااستعداد اللغة ، وارتقاء الأفراد المتكلمين بها لا ارتقاؤها ، لأن ارتقاء اللغة إنما هو بارتقاء أفرادها ، وانحطاطها بانحطاطهم أو بتلفهم ، ومتى وجد الشخص المستعد ذو المخيلة الواسعة الشعرية بين أدباء العربية ، وجدت فيها تلك التخيلات الشعرية السامية والجميلة لاينقصها شيء مما تراه لها من الرونق والطلاوة والبهاء في لغة من اللغات الغربية .

وكان يؤلمه انصراف الطلاب إلى دراسة اللغات الأجنبية ، قبل « أن يوفوا لغتهم حقها من الدرس الواجب والتوسع في مطالعة القرآن وغيره

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من الكتب التي لابد من مطالعتها ، وإطالة التروي فيها ، قبل فهم ماأودعه أئمة البيان في مصنفاتهم من الاشارات إلى ما في تلك الكتب - وأخصها القرآن - من الشواهد والآيات المبني عليها ماأصلوه من قواعد هذا الفن » . ولذلك يدعوهم إلى اتقان لغتهم الأم قبل كل شيء ، ويحبب إليهم دراستها ، ويدلهم من خلال مؤلفاته ، على مواطن الجمال فيها . وقد وضع لهم كتاب « الخواطر الحسان في المعاني والبيان » لهذا الغرض « ليستعينوا على فهم مافي القرآن من مواقع الفصاحة والبلاغة التي بلغت حد الاعجاز ... » .

لقد تميز جبر ضومط عن غيره من المؤلفين في اللغة العربية ، ولاسيما في الصرف والنحو بأنه لم يقتصر على نقل ماكتبه المؤلفون الذين سبقوه ووضعه في قوالب جديدة ، بل كان يُعمل الفكر ، ويبحث ويستنتج ، ويخالف آراء الأقدمين في كثير من القضايا بجرأة مابعدها جرأة ، إذا رآها لاتنطبق على مايصل إليه تفكيره ، وهذه الجرأة تدل على ثقة بالنفس ، ومقدرة في الموضوع الذي يعالجه ، وقد عرف عنه ذلك كثير من الكتاب والشعراء والمفكرين ، قال الشاعر معروف الرصافي في قصيدة يرثيه بها :

بكى الفضلُ لما أن قضى نحبه جبر ... وليس لكسر الموت في طبنا جبرُ
على اللغة الفصحى أياديه جمة ... وآثاره في نشر آدابها غرّ
وماكان يبدي الرأي فيها مقلداً ... ولكن له الابداع والفكرة البكر
وماكان في استقرائه العلمَ جامداً ... ولكنه في العلم كان له فكر
يشق حجاب المشكلات برأيه ... كما شُق بردُ الليل مذ طلع الفجر

وقال عنه الدكتور يعقوب صروف : « ... الذين اشتغلوا بقواعد العربية منذ ألف ومئتي سنة إلى الآن يعدون بالمئات أو بالألوف ، ولكن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قلما نذكر منهم غير سيبويه والمبرد والكسائي وابن جني وابن مالك وابن هشام وأمثالهم من الذين وضعوا قواعد الصرف والنحو ، ومع ذلك فعمل هؤلاء كلهم مقصور على الجمع والتبويب ، وليس بينهم من بحث في أصل اللغة العربية ، وكيف نشأت كلماتها وتصاريفها مثلما فعل جبر ضومط » .

ولعل الذي ساعده على البحث في أصول العربية ونشوئها معرفتُه السريانية والعبرانية شقيقتي العربية ، واعتمادُه طريقة الاستقراء والاستنتاج ، كما يفعل العلماء اليوم .

لم يكتفِ جبر ضومط بتأليف الكتب الجامعية لتدريس الطلاب ، بل كتب مقالات عديدة في مجلات : المقتطف ، والهلال ، والكلية ، والمجمع العلمي العربي ، والمورد الصافي ، والمباحث ، والعرفان ، والمعارف ، والحسناء ، والفجر ، والخدر ، والمرأة الجديدة ، ومنيرفا ، وفتاة الشرق ، والنشرة الأسبوعية وغيرها ، وراسل كثيراً من العلماء والأدباء في البلدان العربية ، وانتخبه المجمع العلمي العربي بدمشق عضواً مراسلاً ، ومنحته الحكومة الانكليزية وساماً رفيعاً ، والجمهورية اللبنانية وسام الاستحقاق اللبناني والحكومة السورية وسام الاستحقاق السوري ، وأقيمت له في حياته الحفلات التكريمية في عدة بلدان . ولما وافته المنية في السابع عشر من كانون الثاني عام ١٩٣٠ أقيمت له الحفلات التأبينية والتذكارية في لبنان والمهجر ، ورثاه الكتاب والشعراء ، ونعته الصحف في كل الأقطار العربية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لحق

م ـ ص

١ ـ انتخب الأستاذ جبر ضومط (من لبنان) عضواً مراسلاً في المجمع العلمي العربي بدمشق في الجلسة المنعقدة في ١٢ / ١٠ / ١٩٢٠ م .

٢ ـ وقد جاء في صفته في مجلة المجمع وهي تعدّد الأعضاء المراسلين : « العلامة جبر افندي ضومط : أستاذ العربية في الجامعة الاميركية في بيروت ، وصاحب التآليف المدرسية الممتعة » (مجلة المجمع ، مج ٢ ، ج ١٢ ، كانون الأول ١٩٢٢ م / ص ٣٦٣) .

٣ ـ من مقالاته في مجلة المجمع :

مقالة بعنوان : الجامعة الاميركانية أو الجامعة الاميركية ، أي النسبتين أصح لفظاً ومعنى ؟ (مجلة المجمع ، مج ١ ، ج ١٠ ، تشرين الأول ١٩٢١ م / ص ٣١١ ـ ٣١٣) .

ومقالة بعنوان الآراميون والأنباط والحثيون موضوع للبحث (مجلة المجمع ، مج ٤ ، ج ١٢ ، كانون الأول ١٩٢٤ م / ص ٥٤٤ ـ ٥٥٠) .

٤ ـ أقيم له الحفل الخمسيني الذهبي في الجامعة الاميركية ببيروت (السبت ٢٨ / ٤ / ١٩٢٨ م) تكريماً لجهوده العلمية على مدى خمسين عاماً قضاها في البحث والتأليف .

٥ ـ تحدث الأستاذ عبد القادر المغربي عن كتابه : فلسفة اللغة العربية وتطورها (مجلة المجمع ، مج ٩ ، ج ٧ ، تموز ١٩٢٩ م / ص ٤٤١ ـ ٤٤٣) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٦ ـ أبّنه الأستاذ بولس الخولي بكلمة طيبة تحدّث فيها عن نشأته وحياته التعليمية وأسفاره ، وعودته الى التعليم ، ومؤلفاته ، وختمها بذكر أخلاقه وصفاته العلمية (مجلة المجمع ، مج ١٠ ، ج ٩ ، آب ١٩٣٠ م / ص ٤٩٢ ـ ٤٩٧) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net